العقلية الـواعية على العبارة الشعريـة غالبة على الرأى النقدى عنـد ابن طباطبا، تحقيقاً للفهم الذى جعله عياراً للشعر، وحُسن التأليف الذى هو سَمْت القصيدة فى مبانيها ومعانيها.

الموضوع الرابع: عيار الشعر:

حاول ابن طباطبا وضع معيار للشعر تُعرف به مواطن الحُسن وسبل إدراكها. فعنده أن «عيار الشعر أن يُورَد على الفهم الثاقب، فما قبله واصطفاه فهو واف، وما مجّه ونفاه فهو ناقص» (العيار ١٩). ويقصد بالفهم الثاقب الوسيلة القادرة على التمييز بين الحَسَن والقبيح مـن الشعر، ونلمح تقارباً أو توافقاً بين رأى ابن طباطبا ورأى ابن سلام الـجُمَحِي فى طبقـاته الذى أقام من حُسْن العلم بالشعر معيـاراً للنقد، وعلـل ذلك بالعلل نـفسها التى سـاقها ابن طباطـبا للتأكيـد على أهمية الـفهم الثاقب فـى تقويم الشعر. فكـلا الرجلين فصل الـقول فى حواس الإنسان وما تـختص به كل حاسة فـتُقْبِل على ما يـلذّ لها وتألفه، وتُـعرض عما تَنْفر منه وتتأذّى بـه، ثم جعل ابن طباطبا الفهم الثاقب مخـتصا بالشعر، وخص ابن سـلام نقد الـشعر بـحسن تـعلمه وإجـادة علمـه عن طريـق كثرة المـدارسة ومداومة المعايـنة والاستماع[1]. والفرق بين الرجلين فيـما ذهبا إليه هو أن ابن طباطبـا حدد آلة النقد وهى الـفهم الثاقب. وابن سـلام عَيَّن السبل التـى تُهَيِّء للناقد شحذ فهمه، وإقداره على التمييز بين الحَسَن والقبيح.

ويزيدنا ابن طباطبـا بياناً لما يأنس له الفهم أو يستوحش مـنه فيقول: «والفهم يأنس مـن الكلام بالعـدل الصواب الحق، والجائـز المعروف المألوف، ويـتشوف إليه، ويتجلى لـه، ويستوحش من الكلام الجائر الخطأ الـباطل، والمُحَال المجهول المنكر، وينفر منه، ويصدأ له» (العيار ٢٠).

---

(١) انظر: طبقات الشعراء: ٢٧ .

ثم يجمل علة كل حسن فى الاعتدال، وعلة كل قبيح فى الاضطراب، وهما صفتان جامعتان لما يصيب اللفظ والمعنى والقافية والوزن وكذا الصياغة وما تستقيم به فى الشعر. وأخذ فى شرح آثار الاعتدال والاضطراب فى النفس والفهم، وعواقب ذلك عليها

ويلفتنا ابن طباطبا فى شرحه إلى توزيعه عيار الشعر على الفهم فيما يضبط به الاعتدال أو الاضطراب، وعلى النفس فيما يُطرِب أو يُقْلِق، فيستشعره الفهم ويعلل له. كل ذلك متكامل فى بناء القصيدة بلا تجزئة تباعد بين العناصر المكونة للشعر، فلا مفاضلة بين اللفظ والمعنى، ولا استعلاء للوزن والقافية على ما سواهما، وقد عرض ابن طباطبا هذا التكامل عرضاً رائقاً واضحاً فى قوله: «والنفس تسكن إلى كل ما وافق هواها وتقلق مما يخالفه... وللشعر الموزون إيقاع يطرب الفهم لصوابه، وما يرد عليه من حُسن تركيبه واعتدال أجزائه، فإذا اجتمع للفهم مع صحة وزن الشعر صحة وزن المعنى، وعذوبة اللفظ، فصفَا مسموعه ومعقوله من الكَدَر، تَمَّ قبوله له، واشتماله عليه، وإن نقص جزء من أجزائه التى يكمل بها ـ وهى اعتدال الوزن، وصواب المعنى، وحسن الألفاظ ـ كان إنكار الفهم إياه على قدر نقصان أجزائه. ومثال ذلك الغناء المُطرِب الذى يتضاعف له طرب مُستَمِعه المتفهم لمعناه ولفظه مع طيب ألحانه. فأما المقتصر على طيب اللحن منه دون ما سواه فناقص الطَّرَب» (العيار ٢١ ـ ٢٢).

وهذه هى العلة الأولى لحسن الشعر وعيارها الفهم الثاقب أو الفهم الناقد للشعر. فالعلة موضوعية، وعيارها قائم على الإدراك المدرب الواعي. ثم عرض ابن طباطبا علة أخرى لحسن الشعر «وهى موافقته للحال التى يعد معناه لها، كالمدح فى حالة المفاخرة وحضور من يُكْبَت بإنشاده من الأعداء، ومن يُسَرّ به من الأولياء، وكالهجاء فى حالة مباراة المُهَاجَى والحَطّ م حيث يَنْكى فيه استماعه له، وكالمراثى فى حال جزع المصاب، وتذكر مناقب المفقود عند تأبينه

والتعزية عنه... فإذا وافقت هذه المعانى هذه الحالات تضاعف حسن موقعها عند مستمعها، ولا سيما إذا أيدت بما يجلب القلوب من الصدق عن ذات النفس بكشف المعانى المختلجة فيها، والتصريح بما كان يُكتم منها، والاعتراف بالحق فى جميعها» (العيار ٢٣ ـ ٢٤) . وهذه علة نفسية تحفز على قوة الاستجابة لمضمون الشعر، أو هى علة تراعى وقوع الشعر مطابقاً لمقتضى الحال فيعظم أثره فى النفوس، ويتضاعف حسن موقعه عند المستمع. ثم نبه ابن طباطبا على ما يمكّن لهذا التأثير ويبعثه سهلاً قوياً عند المستمع، وهو الصدق النفسى بكشف المعانى المختلجة فى النفس بلا تزييف أو إخفاء أو كذب.

وبهذا وضع ابن طباطبا للشعرمعياراً لنقده وهو الفهم الثاقب، ثم حدد علتين لحسن الشعر وقبول الفهم إياه هما: الاعتدال، وموافقته لمقتضى الحال.

الموضوع الخامس: السرقات:

وقف ابن طباطبا من قضية السرقات موقفا وسطا بين استنفاد القدماء المعاني، والإقرار بما حازه المحدثون من لطيف أشعارهم، وبديع ما يُغْرِبونه من معانيهم، وبليغ ما ينظمونه من ألفاظهم، ومُضْحك ما يوردونه من نوادرهم وأنيق ما ينسجونه من وَشْى قولهم. (انظر العيار ١٣) وكان له فى توسطه نظرات تراوحت بين التسجيل والتوجيه.

١ ـ أشفق على المحدثين من تأخر زمنهم «لأنهم قد سُبقوا إلى كل معنى بديع، ولفظ فصيح، وحيلة لطيفة، وخلابة ساحرة، فإنْ أتوا بما يقصرعن معانى أولئك [أى القدماء]ولا يُرْبى عليها لم يُتَلَقَ بالقبول، وكان كالمطَّرَح المملول» . (العيار ١٣) ثم باعد بين القدماء والمحدثين فى الطبع ذاكراً أن المحدثين «أشعارهم متكَلَّفَة غير صادرة عن طبع صحيح كأشعار العرب التى سبيلهم فى منظومها سبيلهم فى منثور كلامهم الذى لا مشقة عليهم فيه» (العيار ١٣ ـ ١٤). وهذا من النقد التسجيلي.